الفصل الثانى

النفعية الأخلاقية

الفصل الثانى

النفعية الأخلاقية

أولاً: القيمة الأخلاقية بين النسبية والإطلاق

عند الحديث عن القيمة الأخلاقية بين النسبية Relative والإطلاق Absolute تتبادر إلى الذهن تساؤلات تبدو فى غاية الأهمية منها: هل الأحكام الخلقية التى نصف بها مواقف الحياة الأخلاقية واحدة؟ أم أنها أحكامٌ متعددةُ الرؤى على غرار من يحكم أو يقرر ذلك الحكم الخلقى؟ وهل كان رسل من دعاة النسبية الأخلاقية أم أنه أحد الفلاسفة الذين ينادون بأن القيمة الأخلاقية مطلقة من حيث الحكم عليها ولا تختلف باختلاف الرؤى عبر الزمان أو المكان؟ و إذا كان رسل من دعاة النسبية الأخلاقية فكيف أكد نسبيته الأخلاقية التى ينشدها؟

يقول رسل «أول نقطة أتناولها بالنظر هى: هل يمكن أن تكون هنالك قواعد أخلاقية ثابتة تحدد الفضيلة فى شتى مواقف الحياة، بحيث إذا روعيت تلك القواعد كلها أصبحت الفضيلة كاملة، وبحيث يوصف بالرذيلة من يخرج على قاعدة منها؟ إن أول ما نعارض به هذه الوجهة من النظر هو أنه يوشك أن يستحيل على أية مجموعة من القواعد أن تشمل السلوك البشرى بأسره، خذ لذلك مثلاً، الوصايا العشر التى هى مجموعة من القواعد تتخذ أساسًا للأخلاق، فهل تنص هذه الوصايا على ما يفيد إن كان من الخير للناس أن يتبعوا قاعدة الذهب فى معاملاتهم الاقتصادية؟ فإن لم يكن فيها ما يهدى فى هذا الصدد، كان يعنى ذلك أن على الناس أن يقسموا سلوكهم قسمين: أحدهما تراعى فيه شرائع الأخلاق، والآخر يترك للمصادفات والتجربة، وهو انقسام لا يرضى الفيلسوف»[1].

(1) برتراند رسل: الفلسفة بنظرة علمية، مصدر سابق، ص190.

يؤكد النص السابق على حقيقة مهمة، وهى أن برتراند رسل يرى منذ البداية كون القواعد الأخلاقية نسبية ومتباينة حسب الظروف والأحكام الإنسانية، فهو إذاً يعد من الفلاسفة القائلين بنسبية القيم، وهم الفلاسفة الذين يؤكدون أن الأحكام الأخلاقية فى جوهرها أحكام وجدانية تستند إلى العواطف وترتكز على الانفعالات، وهى بطبيعتها أحكام نسبية تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، ومن فرد إلى فرد، إن لم نقل إنها تختلف لدى الفرد الواحد باختلاف حالاته الوجدانية[1]. وعليها تتغير القواعد الخلقية بتغير الظروف وتوصف بأنها نسبية، أما المبادئ فلابد أن تَصْدُق فى كل زمان ومكان[2].

ولقد أكد رسل أن معيار التقدير الأخلاقى وكذلك الاهتمام يختلف من مجتمع لآخر، ففى المجتمعات الأرستقراطية Aristocratic epochs يتم تقدير الشخص واحترامه حسب أصله وميلاده، أما فى المجتمعات الأدبية كـ(باريس مثلاً) يتم تقدير الشخص واحترامه حسب نبوغه وتفوقه الأدبى[3].

ويتفق برتراند رسل مع الفيلسوف الأمريكى جورج سانتيانا فى القول بنسبية القيم، حيث يقول الثانى «أنا لا املك إلا التفكير فى نسبية القيم»[4]. فقولنا أن هذا الشيء جميل بالنسبة لذلك الشخص يكون جميلاً بالنسبة لشخص آخر، هو عبارة عن قول لا معنى له ولا تعبير، حيث أنه من الواضح أن هذا النوع من الإلزام يكون من أجل التعرف على نفس الصفات مرهوناً بامتلاك نفس القدرات ونفس المقومات الشخصية، ولكن في الواقع لا يوجد شخصان لديهم نفس المقومات، أو أن تكون الأشياء بالنسبة للاثنين تستطيع أن تكون لديها بالضبط نفس الصفات ونفس القيم، فعندما كانت الطبيعيات البشرية للشخصين مختلفة، فإن الصورة التي تبدو لهذا الشخص غير مرئية وغامضة وغير معروفة، فإنها تكون بالنسبة للشخص الآخر صورة ظاهرة وواضحة ومعروفة[5].

(1) محمد مهران رشوان: تطور الفكر الأخلاقى فى الفلسفة الغربية، مرجع سابق، ص28.

(2) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003م، ص59.

(3) Bertrand Russell: Sceptical Essays, op. cit, p.83.

(4) G. Santayana: Little Essays , Edited by, Logan Pearsall Smith, Charles Scribner's Sons, New York, 1931, p.240.

(5) Ibid: p.241.

ويوضح رسل رؤيته فى النسبية الأخلاقية ببعض الأمثلة التى تبين مدى الاختلاف بين كافة البشر فى الأحكام الخلقية على الأشياء، منها: هل يجوز للزوج أن يقتل عاشق زوجته؟ هذا سؤال قد تجد داخل المجتمع الواحد من يجيب عنه بالإيجاب ومن يجيب عنه بالنفى، وما أكثر ماترى رأى عامة الناس فى ناحية وحكم القضاء فى ناحية أخرى، أو أن ترى حكم الشرع فى ناحية وحكم عامة الناس فى ناحية أخرى، وهكذا، وإن أمثال هذه الحالات التى يحيط بها الشك واختلاف الرأى لتزداد عندما تجتاز قواعد السلوك مرحلة من التغيير[1].

كما أن بعض القبائل لا تبيح لرجل أن يتزوج إلا إذا قتل عدوًا، وجاء برأسه فى حفلة عرسه، فإذا شك شاكٌّ فى سلامة هذا السلوك كان فى رأى أهل القبيلة إباحيًا مستهترًا يهبط بمستوى الرجولة[2].

وأيضًا من الأمثلة المؤيدة للنسبية الأخلاقية - كما يقول رسل - أن البحث عن السعادة يختلف من دولة لأخرى، فإذا سافر شخصًا ما من أوروبا إلى أمريكا سيشعر بأنه يعيش فى المستقبل الباهر، بينما إذا سافر شخص ما إلى الصين، فسيشعر بأنه يعيش حياة القرون الوسطى. فالحضارة الغربية المتمثلة فى الأمريكتين وأوروبا تؤمن بالتقدم، بينما الحضارة الشرقية كالصين أو اليابان مثلاً تؤمن بالعود إلى العصور القديمة، وحكم كونفوشيوس Confucius، وأن الماضى لديهم أفضل بكثير من الحاضر، وهذا راجع إلى أثر تعاليم كونفوشيوس على الشعب الصينى[3].

ويؤكد رسل هنا أن كونفوشيوس كان معتدلاً فى حكمه على أخلاقيات جميع الأشياء، فلم يكن يؤمن بأن يكون مقابل الشر Evil خيرًا، ولكن كان مؤمنًا بأنه لابد أن يكون مقابل الشر شرًا، والخير خيرًا، وهذا على النقيض مما كان يدرّسه معاصروه، وهو إيمانهم الكامل بأن يكون مقابل الشر خيرًا، حتى يصبح الإنسان الشرير إنسانًا خيرًا[4].

وهنا يمكن تلخيص الفرق بين الحضارة الغربية والحضارة الشرقية، فى أن الصين الشرقية

(1) برتراند رسل: الفلسفة بنظرة علمية، مصدر سابق، ص188.

(2) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(3) Bertrand Russell: Sceptical Essays, op. cit, p.99.

(4) Ibid: p.102.

مثـلاً تبحث عن المتعة، فى حين أن الحضارة الغربية تبحث عـن القوة، ولذلك فنحن الغربيون نحـب القوة أكثر من أى شىء فى الطبيعة، ولكـن لا يبحث الصينيون عن القوة، فالصينى يجهد نفسه فى العمل كثيرًا لكى يكسب قوت يومه، ثم يذهب بعدها للاستمتاع بالطبيعة التى حوله، من مسرح وسينما وغيرها، أما الغربيون فيفضلون الذهاب إلى مكاتبهم، ويعدون المتعة ضياع للوقت، فليس هناك ترفيه[1].

وهذا مثالٌ آخر لتغير القواعد الخلقية بتغير الظروف ووجهات النظر: هل يجوز أن يقتل الزوج عاشـق زوجته؟ تجيب الكنيسـة بـ «لا»، ويجيب الإدراك الفطرى السليم أن لا، ولكن القانون يجيب بـ «نعم»، إذ أنه كثيرٌ ما يبرئ القاتل فى مثل هذه الظروف[2].

من خلال الأمثلة السابقة التى توضح مدى قول برتراند رسل بالنسبية فى القواعد الخلقية، فإن دعاة النسبية الأخلاقية أنفسهم يرون أن كل الدلائل شاهدة على تعدد الشرائع الأخلاقية، دون أن يكـون فى إمكاننا اكتشـاف أية «وحدة» حقيقية بين كل تلـك الاتجاهات الأخلاقية المتباينة، وبالتالى فإنه ليس هناك ما يشـهد بوجـود حقيقة أخلاقية مطلقة. والحق أننا لو عدنا إلى التاريـخ، لوجدنـا أن هناك أخلاقَ شـجاعة وأخلاقَ طاعة، كما أن هنـاك أخلاقَ كبرياءٍ وأخلاقَ تواضعٍ، فضلاً عن أن هناك أيضاً أخلاقَ قوةٍ، وأخلاقَ جمالٍ، وأخلاقَ إراديةٍ، وأخلاقَ شهامةٍ، وأخلاقَ وفاءٍ، وأخلاقَ تعاطفٍ. وكل هذه الاتجاهات الأخلاقية وغيرها كثير، إنما هى الدليـل القاطـع على أن البشرية لم تعـرف يومًا «وصايا أخلاقية مطلقـة» أو «معايير أخلاقية ثابتـة»[3]. ونحن لا ننكر قيام هذا التعـدد الأخلاقى عبر التاريخ البشرى كله، ولكننا نلاحظ أن كل شريعـة من هذه الشرائـع الأخلاقية المتباينة كانت تنظر إلى نفسـها على أنها «الحقيقة الأخلاقية المطلقة»[4].

لقد أكد رسـل أن المعتقدات والمشـاعر الأخلاقيـة توجد فى جميع المجتمعات الإنسـانية المعروفة حتـى أكثرها بدائية. فبعض التصرفات تحظى بالثنـاء وبعضها يقابل باللوم، وبعضها

(1) Ibid: p.107.

(2) زكى نجيب محمود: برتراند رسل، مرجع سابق، ص120.

(3) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مرجع سابق، ص72.

(4) المرجع السابق: ص73.

يكافأ صاحبها وبعضها يعاقب. وبعض تصرفات الأفراد يسود الاعتقاد بأنها تجلب الرخاء، لا على الفرد وحده، بل على المجتمع أيضًا، وبعضها يعتقد أنه يجلب الكوارث، وبعض هذه المعتقدات مما يمكن الدفاع عنه على أسس عقلية، بيد أن الغالبية الساحقة من المعتقدات فى المجتمعات البدائية خرافية بحتة، وهى التى كثيرًا ما تكون مصدر الوحى فى أول الأمر لكثير من ألوان الحظر التى يتضح فيما بعد أنها مما يمكن تبريره عقليًا[1].

إذا كان دعاة النسبية الأخلاقية يتفقون فى القول بنسبية القواعد الخلقية، فإن الفيلسوف محل الدراسة يؤكد أيضًا بأن القيم الخلقية التقليدية التى كانت سائدة لم تعد الآن ذات قيمة حقيقية فى الحياة المعاصرة، ففى استطاعة أى رجل رأسمالى أن يحرم ملايين البشر من مورد رزقهم بقرار يوقعه بجرة قلم، وهذا القرار لا ينظر إليه أشد رجال الدين تزمتًا وصرامة على أنه خطيئة تستحق العقاب، حيث أنه - أى رجل الدين - يطالب بالتوبة إذا ما تراءى لأحد الناس أن ينحرف انحرافًا جنسيًا بسيطًا، لا تتعدى عواقبه على أسوأ الاحتمالات سوى إضاعة ساعة من زمن كان من الممكن استخدامها فى ما هو أكثر نفعًا[2].

ويؤكد رسل على أن الشرائع التى يعتقد المؤمنون بأنها منزلة من السماء تحتاج من وقت إلى آخر للتعديل، حتى تتمشى مع الظروف والمناسبات وتطور الزمن. ومن أجل هذا كله لا أضع حدًا فاصلاً بين الخير والشر، بل أرى أن الخير فى بعض الأحيان قد ينقلب إلى شر، والعكس صحيح. لذلك لا أجد أى مبرر لكى نفرض عقوبة على سلوك خاطئ أو غير مرغوب فيه إلا إذا كان هذا العقاب رادعًا للمرء ومانعًا له من معاودته. ولكن أن يكون العقاب لمجرد العقاب، فهذا مالا أسلم به، وبالتالى لا أؤمن بأن ثمة جحيمًا لا يستهدف إلا إنزال العقاب بالخطاة[3]. لذلك كان الحمقى وحدهم ومضطربو الفكر هم الذين يطلقون لنزواتهم العنان، وكلما عُرضت لهم رغبة بادروا بتحقيقها دون التفكير فى أثرها فى الناس، وفيما تخلقه من إحساس داخلى بالرضى أو الضيق أو الألم[4].

(1) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص17.
(2) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص87.
(3) المصدر السابق: ص ص95،96.
(4) المصدر السابق: ص96.

يرى رسل أن الإنسانَ إذا ما حكم على فعل بأنه خير، كانت صفة الخير هذه معبرة عن رغبته الذاتية فى ذلك الفعل، ولم تكن صفة موضوعية فى الفعل ذاته، وبصفة عامة فإن الحديث عن القيم تعبير عن حالة وجدانية عند المتحدث، وليس هو بالحديث الذى يصف شيئًا فى عالم الواقع[1].

إن الـذى يؤكد نظرية الرغبة التى ينادى بها رسـل فى نسـبيته الأخلاقية، هو ما جاءت به نظرية الاهتمام الأخلاقية Ethical Interest التى تؤكد أن حكم القيمة ينتج أيضًا عن رغباتنا الداخلية فى الأشياء، وهذه الرغبة الداخلية تختلف من شخص لآخر، وطبقًا لنظرية الاهتمام - عندما أقول عن شىء بأنه خير أو ذا قيمة، فهذا ليس دليلاً على معرفتى الكاملة بهذا الشىء، إنما يعـبر فقط عن رغبتى الخاصة فى هذا الشىء، وعليه فإن حكم القيمة Value judgment يرجع لرغبتنا فى الأشياء، وليس لكون الأشياء قيمة فى ذاتها، وهذا إن دل على شىء، إنما يدل على كون الأحكام القيمية نسبية تبعًا لإختلاف رغبات البشر[2].

إذن يمكن القول طبقًا لنظرية رسل فى الرغبة النسبية، ونظرية الاهتمام، أن المحك الأساسى فيهـما، هو تناولهما الاختلاف الناشىء عن الأذواق البشريـة المختلفة فى حكمها للقيمة، فعلى سـبيل المثـال، قد يرى شـخصًا ما أن الصحراء مخيفـة ومرعبه، لكونها مجدبـة ولا تصلح لحياة الكائنـات البشريـة عليها، فى حين يرى شـخصًا آخر أن الصحراء تتمتع بالهـدوء التام، وهذا سبب من أسباب الحياة وهدوء النفس فيها، وهذا المثال إن دل على شىء إنما يدل على أن الصحراء تختلف فى التقييم حسـب رغبات البشر، وهذه هى النسبية الأخلاقية[3]. التى ترجع بالضرورة إلى الاختلاف فى عقول البشر، واختلافهم أيضًا فى تقديرهم للأشياء، بالإضافة إلى اختلافهم فى الرأى، لذلك لا يوجد هناك أشياء مطلقة أو ثابتة يمكن أن ندعوها بأنها قيمة[4].

وهنا لابد أن نقف ونتساءل..

كيـف بدا مفهوم الخطيئة فى فلسـفة برتراند رسـل من خلال موقف القيمة النسـبى؟ وما علاقة الخطيئة عند رسل بعصيان أوامر الله؟

(1) زكى نجيب محمود: برتراند رسل، مرجع سابق، ص124.

(2) Sidney Zink: The Concepts of Ethics, op. cit, p.62.

(3) Ibid: p.63.

(4) Ibid: p.61.

يرى رسل «أن هناك صعوبة منطقية فى مفهوم الخطيئة، فلقد قيل لنا أنَّ الخطيئة تتكون من عصيان أوامر الله، ولكن قيل لنا أيضًا إن الله قادر على كل شيء، فإذا كان كذلك فلا شيء يتعارض مع مشيئته يمكن أن يقع، وبالتالى عندما يعصى المذنب أوامر الله فلابد وأن الله أراد لذلك أن يقع. لقد وافق القديس أوغسطين على هذه النظرة بشجاعة، وقرر أن الناس ينقادون للخطيئة بالعمى الذى يصيبهم به الله، لكن معظم اللاهوتيين فى العصور الحديثة أحسوا أنه إذا كان الله يجعل الناس يذنبون فليس من الإنصاف أن يقذف بهم فى جهنم لأمور هم مرغمون عليها. قيل لنا إن الخطيئة هى العمل ضد إرادة الله ولا يزيل ذلك الصعوبة التى نحن بصددها. أولئك الذين يأخذون قدرة الله بجدية، مثل اسبينوزا، فقد استنتجوا أنه لا يمكن أن يوجد شيء يسمى بالخطيئة، قال معاصرو اسبينوزا، لماذا؟ ألم يكن شرًا أن يقتل نيرون أمه؟ ألم يكن شرًا أن يأكل آدم التفاحة؟ هل تستوى الأفعال خيرها وشرها؟ تملص اسبينوزا ولم يجد أية إجابة شافية. إذا كان كل شيء يقع وفقًا لإرادة الله فلابد وأن الله أراد أن يقتل نيرون أمه، ولأن الله طيب فلابد وأن القتل كان أمرًا طيبًا»[1].

إن الذى جعلَ رسل يضرب أمثلة الخطيئة النسبية بالفيلسوف البولندى باروخ اسبينوزا، هو أن «اسبينوزا» لم يكن فى حياته ذلك الزاهد فى الحياة عن إنكار أو كراهية لها، كما أنه لم يكن ذلك المفكر المنعزل الغارق فى تأملاته بين جدران أربعة، بل كان محبًا للحياة، حريصًا على المشاركة فى شؤون مجتمعه والتفاعل الإيجابي بها[2]. لذلك شُبه «اسبينوزا» بـ«سقراط» فى العالم القديم، حيث رأى كل منهما أن الأفعال الخاطئة التى يأتي بها السلوك الإنسانى، هى نتيجة الجهلignorance بالمعرفة الأخلاقية، فالسلوك السيء أو الشرير vicious conduct هو نتيجة أساسية لإخفاق العقل[3].

كما أن «اسبينوزا» الفيلسوف الوحيد فى العصور الحديثة الذى يدخل فى عداد المؤمنين بالطبيعة فى الفكر الأخلاقى، وكانت أهم مبادئه أن الأخلاق عبارة عن شيء طبيعى، كما

(1) برتراند رسل: مختارات من أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص132.

(2) فؤاد زكريا: اسبينوزا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، 2009م، ص31.

(3) Anthony Kenny: The Rise of Modern Philosophy, volume III, Clarendon Press, Oxford, New York, 2006, P.261.

أن الأخلاق نسبية، ولا يمكن أن تكون فى أى حال من الأحوال أخلاقًا اعتباطية، حيث يتم وضعها والتعرف عليها من أجل الصفات الموروثة لكل إنسان أى من خلال الأشكال المتباينة للفعل والسعادة[1]. وهذه السعادة يراها «اسبينوزا» تقوم فى قدرة الإنسان على المحافظة على وجوده، حيث أن العقل لا يطالب بشيء متناف مع الطبيعة ولا مضاد لها[2]. فالعقل قوة من قوى الطبيعة، ونظام من الأفكار المطابقة التى تحدد فضائلنا بالضرورة، كما أن الإنسان مقود بعقله بالضرورة[3].

يؤكد رسل أن «صور الأخلاقيات القائمة على التحريم بقيت فى المجتمعات المتمدينة بمدى أكبر مما يدركه بعض الناس، فقد حرم فيثاغورث أكل الفول، واعتقد أمبادوقليس بأنه من الشر مضغ أوراق نبات الغار، و يرتعد الهندوس لفكرة أكل لحم البقر، والمحمديون واليهود الأصوليين يعتبرون لحم الخنزير نجاسة، أما القديس أوغسطين، رسول التبشير لبريطانيا، فقد كتب للبابا جريجورى الأكبر ليسأل هل يمكن للمتزوجين القدوم إلى الكنيسة لو كانوا قد مارسوا الجنس فى الليلة السابقة، وقرر البابا أن بإمكانهم ذلك إذا ما قاموا بالاغتسال وفقًا للطقوس، كما كان هناك قانونٌ يجعل من غير المشروع لرجل أن يقبل زوجته يوم الأحد»[4]. و يستطرد رسل كلامه فيقول «وفى سنة 1916م أرسل أحد رجال الدين من سكوتلانده كتابًا إلى الصحف يعزو عدم نجاحنا فى الحرب ضد الألمان إلى أن الحكومة شجعت زراعة البطاطس فى أيام الآحاد»[5].

ومن دلائل النظرة النسبية للقيمة يرى رسل أن النظرة الرواقية تعد مسيحية، حيث تتطلب تصورًا للفضيلة يختلف تمامًا عن تصور أرسطو، فهى تقرر أن الفضيلة ممكنة للعبد كما هى ممكنة لسيده، فالأخلاقيات المسيحية تستنكر التكبر، الذى يعتقد أرسطو بأنه فضيلة، وتمتدح الوداعة التى يعتبرها نقيصة، فالفضائل العقلية التى يضعها أفلاطون وأرسطو على درجة أعلى من

(1) G. Santayana: persons and places, the Background of my life, Charles Scribner's Sons, New York, 1944, P.244.

(2) عبد الرحمن بدوى: الأخلاق النظرية، مرجع سابق، ص260.

(3) المرجع السابق: ص259.

(4) برتراند رسل: مختارات من أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص139.

(5) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص21.

كل ما عداها، حيث يجب محوها تمامًا من القائمة لكى يصبح الفقير والوضيع قادرين على أن يكونا فاضلين كأى فرد آخر»[1]. فمادمنا بصدد الأحكام الأخلاقية فلن يكون من حقنا أن نقصرها على فئة معينة من الناس، فإذا قلنا مثلاً: إن على الإنسان أن يسلك بأمانة، فإن هذا لا يتوقف على حجم أو شكل أو لون أولئك الذين يتعامل معهم مثل هذا الإنسان، ومن هنا فإن المشكلة الأخلاقية - كما يرى فيلسوفنا- تؤدى إلى ظهور مفهوم الإخاء بين البشر، وهذا هو الرأى الذى عبر عنه المذهب الرواقى لأول مرة تعبيرًا صريحًا ثم وجد طريقه فيما بعد إلى المسيحية[2].

بناءً على ما تم تقديمه، يعد برتراند رسل رائدًا من رواد النظرية الأخلاقية المعاصرة، فقد تبنى الموقف النسبى فى الحكم على القيمة الأخلاقية، وبذلك يعد رسل على النقيض من الفلاسفة الذين قالوا بأن القيمة الأخلاقية مطلقة، فهى واحدة من حيث الزمان والمكان، وحجتهم فى ذلك بأنهم يقولون أننا لو سلمنا بأن الأخلاق «علم»، و إذا اعترفنا فى الوقت نفسه بأن من شأن كل «علم» أن ينطوى على مجموعة من الحقائق العامة التى تتسم بطابع الصدق، فلابد لنا من التسليم بأن «علم الأخلاق» ينطوى على مجموعة من الأحكام الأخلاقية التى لا تصدق بالنسبة إلى فرد واحد بعينه، بل تصدق بالنسبة إلى الأفراد جميعًا فى كل زمان ومكان[3].

وعلى النقيض من موقف فلاسفة الأخلاق المطلقة، يرى رسل فى دعوته إلى النسبية الأخلاقية، أن ماهية الدستور الخلقى الذى يتخذه نبراسًا له فى الحياة، أنه لم يوجد مثل هذا الدستور الخلقى الذى لا يحتمل الشك أو التعديل حتى الآن، بل أرى أن المرء ينبغى له أن يحدد لنفسه مسائل الخلق والسلوك، كما لا أرى ضيرًا من أن أنتفع بحكمة الأخرين وخبرتهم، وهذا لا يعنى الأخذ بأقوالهم وفلسفاتهم قضايا مسلمة دون بحث أو اقتناع[4]. وكان يرى أن أول القوانين الأخلاقية هو التفكير المستقيم: حيث يقول «أن يهلك العالم خير من أن أصدق أنا أو أى إنسان غيرى، أكذوبة ما... فذلك هو دين الفكر الذى فى اشتعاله تذوب نفايات العالم»[5].

(1) برتراند رسل: مختارات من أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص138.

(2) برتراند رسل: حكمة الغرب، الجزء الثانى، الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة: فؤاد زكريا، عدد يوليو365، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2009م، ص270.

(3) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مرجع سابق، ص60.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص95.

(5) جون لويس: رسل، مرجع سابق، ص12.

ثانيا: النفعية الأخلاقية

فى البدء يمكن القول أن هذا المبحث قد يطلق عليه مسمى «فلسفة الأخلاق بين الفردية والاجتماعية» وعلى الفور تتبادر إلى الذهن تساؤلات عدة من قبيل:

هل تعد النزعة الأخلاقية فى فلسفة برتراند رسل فردية الطابع أى أخلاق شخصية؟ أما أنها أخلاق اجتماعية تقوم على أساس فكرة الاجتماعية؟ أم أنها تقوم على أساس التوازن والتنسيق بين رغبات الفرد والمجتمع؟ و إلى أى حد عبر رسل عن إيمانه بالفلسفة النفعية؟

فى البدء يقرر رسل مستخدمًا منهجه التحليلى التاريخى أن «الواقع الذى تؤيده السجلات التاريخية منذ أقدم العصور، هو أن المعتقدات الأخلاقية ترتكز على أساسين مختلفين كل الاختلاف عن بعضهما البعض: أحدهما سياسى، والثانى خاص بالمعتقدات الأخلاقية والدينية. ونجد فى «العهد القديم» the old testament أن هذين المصدرين لا علاقة تربط بينهما، فالأول يندرج تحت اسم القانون Law، والثانى يندرج تحت اسم الرسل The Prophets، ونجد أن نفس هذه التفرقة بين الأثنين كانت سائدةً فى العصور الوسطى، فكانت هناك الأخلاق الرسمية تمليها الأوضاع القائمة التى تنتظم السلطات فى شكل هرمى إلى جانب القداسة الشخصية التى بشر بها المتصوفون والتزموا العمل بها فى حياتهم، وهذه الثنائية فى المعايير الأخلاقية - ثنائية قوامها الأخلاق الشخصية والأخلاق كما يمليها الوضع السياسى على الصورة التى مازلنا نشاهدها الآن، وهذا أمر يجب أن تعرض له أية نظرية أخلاقية دقيقة»[1].

و يبدأ رسل بمناقشة الأخلاق الفردية كمشكلة فى فلسفة القيم، فيقرر مبدئيًا أن «للحياة وجهان: وجه يتحكم فيه الفرد، ووجه يتحكم فيه المجتمع، والوجه الذى يتحكم فيه الفرد أهم الوجهين فى حياة العظماء والعباقرة والمفكرين»[2].

ويحلل رسل توطئته السابقة، فيؤكد «أنه لا يوجد إنسان يتمتع بحرية مطلقة أو يخضع

(1) برتراند رسل: السلطة والفرد، ترجمة: محمد بكير خليل، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1953م، ص96.

(2) برتراند رسل: مثل عُليا سياسية، ترجمة: فؤاد كامل عبد العزيز، الدار القومية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت، ص53.

لعبوديـة مطلقـة، ولا منـاص للفرد مـن الاحتياج إلى قانـون أخلاقى يحكـم تصرفاته إلى الحد الذى يسـتمتع فيه بحريته، وقد يذهب بعضهم إلى القول بأن الفرد ما عليه إلا الإذعان للعرف الأخلاقى الذى اصطلحت عليه الجماعة، ولكنى لا أستطيع أن أجد فى هذه الإجابة ما يقنع أى طالب يشتغل بدراسة علم الإنسان. لقد شاهدت الإنسانية ألوانًا من المآسى كأكل لحوم البشر والتضحية بالإنسـان وقطع رءوس الآدميين، ولكن قضى على هذه المشـاهد المؤلمة كلها نتيجة ليقظـة الضمير الأخلاقى واحتجاجه على هذه الوحشـية التى طالما اصطلح عليها الرأى العام، ولو أن إنسانًا أراد أن يحيا الحياة المثالية الميسرة له لوجب عليه أن يتعلم نقد ما اصطلحت عليه القبائل حوله من تقاليد واعتقادات»[1].

مما سـبق يتضح أن رسـل يرى الإنسـانية ترجع فى ذاتها إلى أسـس ومبادئ بمثابة العادات والتقاليـد، وإن شـئت فقل عنها «العـرف»[*]، ولكن يظهر رسـل وكأنه مدافعًـا عن الفردية الأخلاقيـة حين يقول «ولا يقتصر علم الأخلاق على أن يعرض لواجبى نحو جارى فقط مهما كنا على حق فى تقدير مثل هذا الواجب، فالحياة السعيدة لا يمكن أن تتحقق إذا ما اعتقدنا أن نشاط الإنسان يجب أن ينصرف لآداء الواجبات المهمة وكفى، إذ لابد من هدف آخر وهو بذل أقصى الجهود لتحقيق أسمى معانى الشخصية، نعم إن الإنسان مخلوق اجتماعى، ولكن مثل هذا القول لا يطلق على وجه الإطلاق، إذ ليس الطابع الاجتماعى للفرد هو كل شيء»[2].

(1) برتراند رسل: السلطة والفرد، مصدر سابق، ص95.

(*) العرف: هو أداة أو معيار لضبط الأخلاق فى أى مجتمع من المجتمعات، وذلك لأنه حصيلة نتاج الجماعة، وخلاصة تجاربها التى وصلت إليها، فهو بمثابة قانون إلا أنه غير مكتوب، كما أن واضعه ليس جماعة محددة أو فئة معينة، بل شارك الجميع فى صنعه دونما قصد، وإنما بشكل عفوى وتلقائى. فالعرف يعنى مجموعة القواعد التى درج الناس عليها جيلاً بعد جيل، والتى يشعرون بضرورة احترامها خشية الجزاء الاجتماعى الذى يوقع عليهم عند مخالفتها.

وينقسم العرف إلى قسمين: عرف عام، وهو ما يتعارف عليه الناس جميعًا فى بلد ما أو أمة مثل تعارف الناس على إطلاق لفظ الطلاق فى انفصال العلاقة الزوجية. وعرف خاص، وهو ما يتعارف عليه أهل بلد دون أخرى، أو ما تتعارف عليه طائفة دون أخرى، مثل تعارف أهل العراق على إطلاق لفظ الدابة على الفرس.

انظـر- هنية مفتاح القماطى: الأخلاق والعرف، منشورات جامعة قاريونس، الطبعة الأولى، بنغازى، 1991م، ص ص 7، 28، 30.

(2) برتراند رسل: السلطة والفرد، مصدر سابق، ص97.

لقد رزق الإنسان كما يقول رسل الأفكار والمشاعر والغرائز التى قد تكون حكيمة أو غير حكيمة، نبيلة أو وضيعة، فياضة بالحب أو مستوحاة من الكراهية، ولكن لو أن حياته تغدو أمرًا محتملاً للزم أن يتسع المجال لأحسن ما فى هذا التفكير، وفى هذه المشاعر. إذ لو صدق أن فئة قليلة تشعر بالسعادة فى كنف العزلة لصدق أن فئة أخرى أقل عددًا من هذه تستطيع أن تشعر بالسعادة فى مجتمع لا يقر حرية التصرف للفرد[1].

وإذا كان رسل يدافع عن الفردية الأخلاقية فى هذا الصدد، فإنه على الرغم من ذلك لم يكن من الفلاسفة الذين مجدوا الفردية، فلقد سبقه الفيلسوف الألمانى «نيتشه» فى أواخر القرن التاسع عشر، حيث كان هذا الأخير يمجد الفردية فتراه يقول «أن الفردية نوع متواضع مازال لا شعوريًا من أنواع إرادة القوة، حيث يكتفى الفرد بالتحرر من ربقة المجتمع سواء كانت ربقة الدولة أم ربقة الكنيسة»[2]. وعليها كانت رؤية أنصار الوجودية وهى أننا لو أمعنا النظر فى المشكلة الخلقية لوجدنا أنها أولاً وبالذات مشكلة شخصية تتصف بالطابع التاريخى الدرامى الذى تتصف به أية خبرة أخرى معاشة[3].

إن الواقع الذى يقرره رسل فى فلسفته هو أن الإنسان، وكذلك الحيوانات العليا يمكن أن توصف بأنها كائنات حية بكل معانى الكلمة، وكل ما يصيب الفرد من خير أو شر ينصب عليه كشخص واحد، فلا يصيب عضوًا واحدًا من أعضائه الأخرى. فلو أنى شعرت بألم فى أسنانى أو ألم فى مؤخرة القدم لكنت أنا الذى أشعر به كشخصية متماسكة، وما كان ليحدث هذا الألم، لو لم تكن هناك سلسلة من الأعصاب تصل بين هذا الجزء الذى هو مصدر الألم وبين المخ. ولكن لو أن فلاحًا فى «هرفوردشير» تعرض لعاصفة ثلجية فلن يكون معنى هذا أن الحكومة فى لندن تشعر ببرد قد أصابها، وهذا هو السبب فى أن الإنسان بمفرده هو الذى يتحمل تبعة الخير والشر لا عضوًا واحدًا من أعضاء هذا الإنسان أو مجموعة الناس، والاعتقاد بأن الخير والشر قد يصيب هيئة اجتماعية بأكملها بمعزل عما يصيب أفرادها من

(1) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(2) جاكلين روس: الفكر الأخلاقى المعاصر، ترجمة وتقديم: عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، الطبعة الأولى، بيروت، 2001م، ص16.

(3) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مرجع سابق، ص82.

خـير أو شر اعتقـاد خاطئ. زد على ذلك أنه خطأ ينتهى بنـا إلى النظم الديكتاتورية ومن ثم كان له خطره[1].

إن ما أكده رسـل عن أهمية الفرد ودوره فى فلسـفة الأخلاق، يدل على أن الخبرة الأخلاقية هى كل تجربة يعانيها الإنسـان حين يستخدم إرادته، أو حين يقوم بأى جهد إرادى سواء كان ذلـك من أجل تحقيـق مقصد ذاتى، أم من أجل تغيـير العالم المحيط بـه، والتأثير على غيره من النـاس، ولهـذا فقد ارتبطت الحياة الأخلاقية منذ البداية بطابع النشـاط الهادف الذى يراد من ورائه تحقيق غاية أو مقصد[2].

وأمـا عن حقوق الفرد قِبل المجتمع، فإن رسـل يرى «أن الأخلاق بهذه الكيفية تعد محاولة لجعل الإنسان مخلوقًا إجتماعيًا أكثر مما جعلته الطبيعة، ومن ثم يمكننا أن نقول أن ألوان الشدة والتوتـر التى تتصـل بها القواعـد الأخلاقية راجعـة إلى أن الطابع الاجتماعـى للنوع البشرى طابع جزئى فقط، بيد أن هذا نصف الحقيقة وليس الحقيقة كلها. فكثير من الأشـياء التى تعد خـير ما فى النوع البشرى ترجع إلى أن الإنسـان ليس اجتماعيًا بصـورة كاملة. فالفرد له قيمته الذاتية الخاصة به، ومن ثم فإن جزءًا أساسـيًا من دعم الخير العام يتكون من السـماح للأفراد بـشىء من الحريات التى ليس واضحًا أنها تضر الآخرين. وهذا هو ما ينشـأ عنه ذلك الصدام المسـتمر بين الحرية والسـلطة، وهو الذى يضع حدودًا للمبدأ القائل بأن السـلطة هى مصدر الفضيلـة»[3]. وهكـذا لم يعد الفرد فى كل أعماله المهمة وحدة منفصلـة بل أصبح معتمدًا على منظمة اجتماعية[4].

وهنا يؤكد رسـل أن الخير بالنسـبة للفرد الواحد هو التنسـيق بين رغباته[5]، ويسـتند رسل إلى «روبنسـن كروسـو» ذلك الرجل الذى يعيش بمفرده: فيرى فيه تعـارض بين التعب والجوع

(1) برتراند رسل: السلطة والفرد، مصدر سابق، ص ص102،103.
(2) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مرجع سابق، ص ص17،18.
(3) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص114.
(4) برتراند رسل: النظرة العلمية، ترجمة: عثمان نويه، مراجعة: إبراهيم حلمى عبدالرحمن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1956م، ص188.
(5) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص65.

مثـلاً، أو قل إن التعارض كائن بين الجهد المتعب الآن والجوع المنتظر غدًا، فالجهد الذى يتعرض لمشـقته فى هذه اللحظة الراهنة لكى يوفر لنفسـه القوت فى ساعة مستقبلة، هذا الجهد تتمثل فيه كل خصائص ما نسـميه بالجهد الخلقى، فترانا نعلى من شـأن شخص يبذل مثل هذا الجهد ونحط من شـأن من لا يبذله، لأن بذل الجهد فى وقت حـاضر بغية ثمرته المرتقبة فى وقت آت، يحتاج إلى ضبط النفس حتى لا تجرى وراء نزواتها الراهنة، فلا شـك أن «روبنسـن كروسـو» قد تبين فى نفسـه عدة رغبات، كل رغبة منها تكون أقوى فى وقت معين منها فى وقت آخر، كما تبين أنه لو عمل بمقتضى الرغبة التى تكون لها الغلبة الآن، فوّت على نفسه رغبات أخرى لو حُسب حسابها لرجحـت تلك الرغبة المحققة، وهو إذ يوازن هكـذا بين رغباته ليعلم أيها يحقق وبأيها يضحى، فإنما يستخدم ذكاءه، وهذا الذكاء إذا ما نما وتقدم، نمت معه الرغبة فى حياة متسقة الجوانب[1].

ولنأخذ مثلاً لذلك حب الاسـتطلاع العقلى من شأنه أن يشيع فى النفس الرضى فى اعتدال، على حين تعاطى المخدرات يسبب سعادة مفرطة فى اللحظة الراهنة ولكنها سعادة يعقبها ندم، فلو رسـونا فجأة على الجزيرة التى يسكنها «روبنسن كروسو» ووجدناه يقضى وقته فى دراسة النبـات، كان ذلـك فى رأينـا أفضل مما لو وجدناه مخمـورًا مخدرًا، ومرد هذا الاسـتهجان وذلك الاستحسان إلى قواعد الأخلاق[2].

ولقد أشـار رسـل إلى حقيقة مهمة مؤداها، أن الناس قلما يذكرون أن السياسة والاقتصاد والتنظيـم الاجتماعى بصفة عامة كل هذه تدخل فى نطاق الوسـائل لا الغايات، بل إن تفكيرنا السـياسى والاجتماعى أميل إلى الاعتقاد بما يمكن أن يسـمى «عقيدة خاطئة فى تفكير المدير» وأقصـد بها ذلك الاعتقـاد التقليدى الذى يصـور الهيئة الاجتماعية على أنهـا كيان كلى ينتظم سـائر أجزائه، كيان يحلو لنـا التفكير فيه بوصفه صورة ممتعة لما ينبغـى أن يكون عليه وضع مثالى تماسـكت مختلف العناصر فيه، مثله فى ذلك كمثل الكائن الحى تشابكت أجزاؤه فى دقة وإحكام، ولكن المجتمع لم يوجد أو على الأقل لا ينبغى أن يوجد ليكون صورة موضوعية أو تطبيقيـة تقاس بمثل هذا التقدير النظرى، وإنما وجد ابتغاء تحقيق الحياة السـعيدة لأفراده، إذ الواقع أن القيمة النهائية التى يصبو إليها المجتمع هى قيمة الأفراد لا قيمة المجتمع كنظام قائم

(1) برتراند رسل: الفلسفة بنظرة علمية، مصدر سابق، ص194.
(2) المصدر السابق: نفس الصفحة.

بذاته، وما يقصد بالمجتمع السليم إلا أنه وسيلة لتوفير أسباب الحياة السعيدة للأفراد االذين يعيشون فيه، لا شيئًا مثالياً له كيانه الخاص بمعزل عن هؤلاء الأفراد[1].

ولكن رغم الأهمية العظيمة التى أكدها رسل لقيمة الفرد الأخلاقية فى مجتمعه، إلا أنه يرى «من الواجب تقييد تحكمات الفرد إذا كان وحشيًا، أما إذا لم يكن كذلك فلنفعل ما فى وسعنا لكى نجعله عظيمًا قويًا قدر الإمكان، وغاية التعليم ليس لها أن تجعل الأفراد يفكرون جميعًا بطريقة واحدة، بل فى أن تجعل كلاً منهم يفكر بالأسلوب الذى يعبر تعبيرًا كاملاً عن شخصيته»[2].

وهنا نسأل أنفسنا...

إذا كان رسل يعلو من القيمة الأخلاقية للفرد، فهل يمكن للفرد أن يعيش بمعزل عن الأخرين؟

يمكن القول أن جوهر المشكلة الخلقية تكمن فى احتكاك الإنسان بالآخرين[3]. حيث أن علم الأخلاق هو العلم المعيارى لسلوك الكائنات الحية التى تعيش فى مجتمعات[4]. والسلوك الإنسانى هذا لا يكون إلا للفرد الذى يمتلك العقل، وبالتالى تقوم المجتمعات على أساس أن الفرد جزء لا ينفصم من المجموعة أو الجماعة، حيث أنه عضو موصول بالمجتمع لا ينفك عنه[5]. فمن العسير على المرء أن ينظر إلى الأخلاقيات دون أن ينظر إلى العلاقات القائمة بين البشر حيث أن القواعد الأخلاقية من قبيل «لا تنكث العهد»، «لا تكذب»، «لا تسرق» كلها تفترض عالمًا من الأشخاص الآخرين- وكثيرًا ما يوصف السلوك الأخلاقى بأنه السلوك الذى يراعى الآخرين[6].

(1) برتراند رسل: السلطة والفرد، مصدر سابق، ص102.
(2) برتراند رسل: مثل عُليا سياسية، مصدر سابق، ص53.
(3) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص66.
(4) وليام ليلى: مقدمة فى علم الأخلاق، ترجمة وتقديم وتعليق/ على عبد المعطى محمد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2000، ص161.
(5) نازلى إسماعيل حسين: فلسفة القيم، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1997م، ص104.
(6) وليم جيمس إيرل: مدخل إلى الفلسفة، ترجمة: عادل مصطفى، مراجعة: يمنى طريف الخولى، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 2005م، ص281.

يرى رسل أن الخير فى أساسه عبارة عن فكرة اجتماعية يراد بها أن تقضى على ما بين الناس من تعارض، على أن هذا التعارض لا ينشأ بين الأفراد فحسب، بل إنه كذلك لينشأ بين مختلف الرغبات داخل الفرد الواحد فى لحظات مختلفة، بل فى اللحظة الواحدة، حتى و إن يكن فردًا وحيدًا مثل «روبنسن كروسو»[1].

يؤكد رسل على حقيقة مهمة مؤداها «أننا إذا انتقلنا بالبحث من الفرد الواحد المتفرد إلى المجتمع الذى تتشابك فيه رغبات أفراد كثيرين، ألفينا مسائل الأخلاق أهم وأصعب، لأن التعارض بين رغبات أفراد كثيرين أعسر على الحل من التعارض الكائن بين مختلف الرغبات عند الفرد الواحد، و إن المجتمع ليتخذ لتهذيب رغبات أبنائه طريقين: القانون والتربية، فبالقانون يُقوّم السلوك الشاذ بالعقاب، وبالتربية يهذب الأفراد تهذيباً يميل بهم نحو توجيه رغباتهم فيما يخدم صالح الجماعة كلها»[2].

و يستطرد رسل تحليله للموضوع فيؤكد على أهمية التفرقة بين الشعور والعمل، فلاشك أن العمل الذى يؤديه الفرد هو الجانب الذى يهم الدولة، ولا يهمها أن يكون هذا العمل المطلوب محاطًا بالرضى أو الضيق، لكنه يستحيل من جهة أخرى أن يفعل الإنسان الفعل الصواب دائمًا وفى كل الظروف ما لم يسبق ذلك توجيه سليم لرغباته[3].

من خلال النصوص سالفة الذكر، والتى عرضها رسل فى كتابه «الفلسفة بنظرة علمية» يتضح منها أنه يدافع عن الخير فى سبيل المجتمع، وذلك على النقيض مما تم عرضه فى كتابه «السلطة والفرد» التى يدافع فيها عن خير الفرد أو الشخص، ولكن إذا كان خير الفرد فى فلسفة رسل قائمًا على إحداث التوازن بين رغباته المتضاربة، فإن خير المجتمع يقوم أيضًا على أساس التنسيق و إحداث التوازن بين رغبات أفراده[4].

كما يكمن خير المجتمع أيضًا فى الاتجاه نحو الآخرين، حيث أن الاتجاه نحو الآخرين أو الإيثارية مما يميز الأشياء الصالحة أخلاقيًا، و يوصف الإنسان بأنه رجل أخلاق فعلاً، فقد

(1) برتراند رسل: الفلسفة بنظرة علمية، مصدر سابق، ص193.
(2) المصدر السابق:ص ص194،195.
(3) المصدر السابق: ص195.
(4) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص66.

ينعزل بعض القديسين والزاهدين عن المجتمع، ويؤدون واجباتهم الأخلاقية منفردين، لكن الرجل العادى لا يزال وسيظل يعيش فى مجتمع، وكما قال أرسطو من قبل: «إن الإنسان الذى يعيش منفردًا أو منعزلاً إما أن يكون وحشًا أو إلهاً»[1].

لقد ظهر رسل فى دفاعه عن خير المجتمع وكأنه أحد الفلاسفة النفعيين، الذين يؤمنون بالمنفعة العامة، وهنا يشبه رسل الفيلسوف الإنجليزى «جيرمى بنتام» Jeremy Bentham (1748 - 1832) الذى رأى أن الأصول النفعية هى المبادىء الأولى للتشريعات Legislators الأخلاقية[2].

وهنا يوضح برتراند رسل المصادر الأولى التى اشتقت منها الفلسفة النفعية مصادرها، فيرى فيلسوفنا- أن مذهب المنفعة اشتق من نظرية أخلاقية ترجع بوجه خاص، إلى «هتشيسون»[*] Hutcheson الذى كان قد عرضها عام 1725م[3]. فى حين أرجع «آير» النظرية النفعية إلى القرن الثامن عشر فى كتابات «هيلفيتوس» Helvetius ثم «هتشيسون» و«هيوم». وتدين النظرية النفعية فى اسمها إلى «مبدأ النفع» Principle of utility الذى صاغه «جيرمى بنتام» فى كتابه «مبادىء الأخلاق والتشريع» Principles of Morals and Legislation الذى نشر

(1) وليام ليلى: مقدمة فى علم الأخلاق، مرجع سابق، ص161.

(2) D. H. Monro: Bentham, Jeremy, in, The Encyclopedia of Philosophy, vol 1, edited by, Paul Edwards, Macmillan Reference U.S.A, New York, 1996, p.281.

(*) هو فرنسيس هتشيسون (-1694 1747) ولد فى شمال أيرلنده، وأدار أكاديمية خاصة لفترة من الزمن فى دبلن، وشغل حتى وفاته كرسي فلسفة الأخلاق بجامعة جلاسجو من عام 1729م، وقد نشر ابنه أضخم مؤلفاته وهو كتاب «مذهب فى فلسفة الأخلاق» بعد مماته.
وكان «هتشيسون» يقف موقف المعارضة من كل تفسير «عقلى» و«قبلى» لأحكام القيمة مثلما فعل «كلارك»، فلم يكن تمييز القيمة عند «هتشيسون» نشاطًا يقوم به العقل، بل تقوم به «حواس داخلية» بعينها، خلقها الله لأداء هذا الغرض خاصة، «فالحس الخلقى» يدفعنا مثلاً عن طريق «العواطف القوية» إلى البحث عن أكبر سعادة لأكبر عدد من الناس.
وعن طريق «هتشيسون» عرف «هيوم» أن الأحكام الأخلاقية لا يمكن أن يبررها العقل وحده تبريرًا نهائيًا.
انظر - الموسوعة الفلسفية المختصرة: نقلها عن الإنجليزية/ فؤاد كامل، جلال العشرى، عبدالرشيد الصادق، راجعها وأشرف عليها وأضاف شخصيات إسلامية/ زكى نجيب محمود، دار القلم، بيروت، د. ت، ص ص 493 - 494.

(3) برتراند رسل: حكمة الغرب، الجزء الثانى، مصدر سابق، ص182.

عـام 1789م، ثـم تطـورت بعد ذلك فى القرن التاسـع عشر عنـد «جون سـتيوارت مل» الذى أعطاهـا مسـمى «النزعة النفعية» Utilitarianism فى كتاب الأخـلاق الذى نشر عام 1861م، وكذلك وجدت هذه النظرية عند فيلسـوف مدرسـة كيمبردج «هنرى سيدجويك» فى كتابه «منهج الأخلاق» The Method of Ethics الذى خرج إلى النور عام 1874م[1].

ويشـير فيلسوفنا - إلى مضمون النظرية النفعية، فيراها باختصار شديد أنها ترى أن الخير هو اللذة والشر هو الألم، ومن هنا فإن أفضل حالة يمكن بلوغها هى تلك التى يبلغ فيها تفوق اللذة على الألم أقصى مداه. وقد أخذ «بنتام» بهذا الرأى، وأصبح يعرف باسـم «مبدأ المنفعة»، فى حين كان «جيرمى بنتام» معنيا قبل كل شىء بالتشريع، حيث اسـتمد أفكاره الأساسـية من «هيلفيتوس» و«بيكاريا» Beccaria فالأخلاق عند بنتام - كما يقول رسـل- هى قبل كل شىء أساس لدراسـات عن الأسـاليب التشريعية الكفيلة بإدخال أفضل التحسينات على الأوضاع، حيـث كان «بنتـام» زعيمًا لمجموعة أطلق عليها اسـم «الراديكاليون الفلسـفيون» التى كان أفرادهـا يبـدون اهتمامًا كبيرًا بالإصـلاح الاجتماعـى والتعليم، وكانوا معارضـين بوجه عام لسـلطة الكنيسـة وللامتيازات التـى تحتكرها الطبقـة الحاكمة فى المجتمع. أما «بنتام» نفسـه فـكان ذا مزاج انطوائى هادىء، وبدأ بآراء لم تكن متطرفـة بصورة واضحة، ولكنه فى حياته اللاحقة أصبح، على الرغم من خجله الشـديد، ينكر الدين بعدوانية شديدة[2]. كما كان مثله الأعلى - كمثل «أبيقور» الأمن لا الحرية، فالحروب والعواصف من الأفضل أن نقرأ عنهما، أما السلام والهدوء فمن الأحسن والأفضل أن نعيش فى كنفهما[3].

لقد أكد برتراند رسـل فى «حكمة الغرب» على أن القاعدة النفعية عند بنتام وغيره، تدعو إلى البحث عن أكبر قدر من السعادة، وترتبط هذه القاعدة بعلم النفس من حيث أن ما يسعى الناس إلى بلوغه هو فى رأى «بنتام» تحصيل أكبر قدر من السـعادة لأنفسـهم. وكلمة السـعادة كما يقول - رسـل- مساوية فى معناها لكلمة اللذة. فمهمة القانون هى التأكد من أن أى شخص

(1) A. J. Ayer: Freedom and Morality- and Other Essays, Clarendon Press, Oxford, New York,1984, pp.35-36.

(2) برتراند رسل: حكمة الغرب، الجزء الثانى، مصدر سابق، ص ص183،182.

(3) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمد فتحى الشنيطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977م، ص416.

فى سعيه إلى سعادته القصوى، لن يمس حق الآخرين فى السعى إلى الهدف نفسه. وعلى هذا النحو يتحقق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، وقد كان هذا هو الهدف المشترك لأصحاب مذهب المنفعة جميعًا مهما اختلفوا فيما بينهم[1].

ولكن تطرف «بنتام» بمبدأ المنفعة إلى معنى آخر من المعنى الذى قصده - رسل (وهو أن السعادة عند النفعيين عمومًا هى الغاية القصوى للأخلاق)- حيث رأى «بنتام» أن بعض الكلمات مثل، «ينبغى» ought و«صواب» right و«خطأ» wrong ليس لها أى معنى أخلاقى إلا إذا تم تفسيرها على غرار مبدأ المنفعة[2].

إن مبدأ المنفعة الذى يمثل القاعدة النفعية هنا، والذى يقر «بتحقيق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس»(*)، كان بمثابة الهدف الأول عند بنتام[3]. إذ أن المقياس النفعى ليس هو تحقيق السعادة القصوى لفرد واحد بعينه، و إنما يتم تحقيق السعادة لجميع البشر، وعلى ذلك - يمكن تعريف مذهب المنفعة- بأنه مجموعة القواعد التى ينبغى أن يسير بمقتضاها السلوك البشرى لتحقيق السعادة لأكبر عدد من الناس[4]. فالعقيدة النفعية - تنص على أن- السعادة هى الشىء الوحيد المرغوب فيه desirable وهى غاية منشودة، وأن كل الأشياء الأخرى ما هى إلا وسائل مرغوبة لتحقيق هذه الغاية القصوى[5]. وقد اتفق على هذا المبدأ جميع الفلاسفة النفعيين، حيث أن السعادة تعد غاية الحياة الخلقية التى ينبغى أن يسعى إليها جميع البشر.

ولكن اتخذت القاعدة النفعية عند بنتام طابعًا سيكولوجيًا، وقد دعاها بـ «مذهب اللذة السيكولوجي» Psychological Hedonism الذى يقرر أن الناس ينشدون اللذة بطبيعتهم فى تصرفاتهم، و يتجنبون الألم، وهذه هى الحقيقة الأخلاقية moral fact التى قضت بها الطبيعة البشرية[6].

---

(1) برتراند رسل: حكمة الغرب، الجزء الثانى، مصدر سابق، ص184.

(2) Edward Westermark: Ethical Relativity, op. cit, p.5.

(*) «The Greatest Happiness of The Greatest Number».

(3) Dudley Knowles: Political Philosophy, Routledge, London, 2001, p.24.

(4) Edward Westermark: Ethical Relativity, op. cit, p.7.

(5) Ibid: p.6.

(6) Roger Scruton: A Short History of Modern Philosophy, from Descartes to Wittgenstein, Routledge, Second Edition, London and New York, 1981, p.224.

لقد توصل «بنتام» إلى معنى الغيرية Altruism كنتيجة مهمة فى فلسفة الأخلاق، حيث قرر فيها أن المصلحة الذاتية تتطلب من صاحبها أن ينشد تحقيق مصلحة المجموع فى غير أثرة، وأن هذا هو خير طريق يسلكه إلى تحقيق مصلحته الشخصية[1].

ومن خلال فكرة «الشمول» أدخل بنتام الغيرية فى تعريف الأنانية، وجعل مذهبه يوجب إتيان الأفعال التى تشبع ميول مجموعة من الناس، لا التى تحقق مصلحة ذاتية ما، ومتى استبعدنا عواطف الغيرة والتنافس وغيره من نفوس الناس، نمت سعادة الإنسان عند شعوره بأن الناس يشاركونه لذته، من هنا كانت رغبة الإنسان فى أن يشارك غيره لذاته طمعًا فى ازدياد شعوره باللذة، و يقتضى هذا التعاطف أن يعمل الإنسان على محو آلام غيره وكأنها آلامه، وهكذا فإن الإنسان اجتماعى بطبيعته، ينطوى على حب و إنسانية، وهذا هو الذى يفسر لنا ضيق الإنسان بالوحدة أو العزلة، وميله إلى تحقيق الصالح العام، ونحو هذا من ظواهر. فطبقًا للمذهب النفعى، يكون الفعل صوابًا إذا كان ذا فائدة تحقق السعادة للمجموع[2].

والسعادة Happiness هنا هى النظرية المفسرة لمجموع اللذات Pleasures فاللذة هى الخير، كما أن الألم Pain أو عدم اللذة هو الشر، فتكون الأفعال صوابًا إذا حققت خيرًا ما، ومنعت شرًا ما، وعليها تكون النفعية عندما تحقق الأفعال السعادة أو المتعة أو تمنع وجود الشقاء والألم[3]. أو كما قال «مل» أن الإنسان لا يرغب فى شىء لذاته، و إنما يرغب فيما يجلب لذة أو يبعد ألمًا[4]. و إمعان النظر فى هذا القول ينتهى بنا إلى القول بأن الرغبة فى شىء، والشعور بأنه سار desiring a thing, and finding it pleasant أو النفور من شىء والشعور

(1) توفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1953م، ص109.

(2) مثال بسيط- يمكن أن يوضح حقيقة المذهب النفعى، إذا كانت المتعة عند طفل، أن تأخذه إلى شاطىء البحر لكى تسعده، فإن فعلت تكون أصبت فعلاً خيرا، بينما إذا حققت نفس المتعة لطفلين، فإن هذا يكون الفعل الأفضل، وبالتالى يكون الإختلاف بين الفعلين، أن الفعل الثانى ربما كان هو الصواب Right لذا كان ينبغى عليك أن تفعله.
انظـــر:

D. D. Raphael: Moral Philosophy, op. cit, p.34.

(3) D. D. Raphael: Moral Philosophy, op. cit, p.34.

(4) توفيق الطويل: مذهب المنفعة العامة فى فلسفة الأخلاق، مرجع سابق، ص109.

بأنـه مؤلم، هما ظاهرتان phenomena متلازمتـان لا تنفصلان، وفى دقة اللغة(*)، هما اسـمان مختلفان لحقيقة سيكولوجية واحدة(1).

وقـد صرح بهذا القول «بنتام» من قبل، عندما رأى أن الطبيعة Nature وضعت الإنسـان تحت سيطرة سيدين عظيمين، هما اللذة pleasure والألم pain، فإليهما يرجع ما ينبغى أن نأتيه من أفعال، وبهما يتحدد ما سُـيقدم عليه الإنسـان من تصرفات، فهما يعدان مسـتوى للصواب right والخطـأ من جهة، ومن جهة أخرى ترتبط بهما سلسـلة العلـة causes والمعلول effects فيتحكـمان فى كل مـا نقوم به مـن أفعال، وما يطـوف بخواطرنا من أفـكار، وكل جهد نبذله للتحرر من سـيادتهما لا ينتهى بغير إثبات هذه السيادة وتوكيدها(2). بالإضافة إلى ذلك أن مبدأ المنفعة the principle of utility يعترف بهذه السيادة ويُقرها، بل يفترضها أساسًا لهذا المذهب الذى يهدف إلى تحقيق السعادة عن طريق العقل Reason والقانون(3).

إن المقارنة بين رسل والفلسفة النفعية بوجه عام، هذا إن دل على شيء فإنه يدل بالتأكيد على أن رسـل فى معالجته الأولى لطبيعة القيم الأخلاقية كان يقبع داخل الاتجاه النفعى، حيث مثلت المرحلة الأولى من أطوار فكره الأخلاقى نفعًا أخلاقيًا، وهذا يمثل الطور الأول من فكره.

ولكن.. من أين جاءت النزعة النفعية فى الأخلاق إلى فكر برتراند رسل؟

يرى رسل أن «جون ستيوارت مل» كان له أكبر الأثر عليه فى جُلِّ كتاباته الفلسفية، فتراه يقـول عن «مل» «أنـه مثل «أبيقور»، الذى يمكن أن يعد من أوائل القائلين بمذهب المنفعة»(4). كما يقول عنه فيلسـوفنا أيضًا «أنه لم يحدث لى أن التقيت بفلاسـفة محترفين عدا «مل» سواء فى

(*) «desiring a thing, and finding it pleasant, are, in the strictness of language, two modes of naming the same psychological fact».

(1) Henry Sidgwick: The Methods of Ethics, Macmillan & Co, London, 1874, pp.30,32.

(2) Jeremy Bentham: An Introduction to The Principles of Morals and Legislation, vol 1, Printed for w. Pickering, London, 1823, p.1.
See Also- Anthony Kenny: Philosophy in the Modern World, Volume IV, Clarendon Press, Oxford, New York, 2007, p.220.

(3) Ibid: pp.1,2.

(4) برتراند رسل: حكمة الغرب، الجزء الثانى، مصدر سابق، ص187.

كتبهم أو لقاءً شخصيًا، إلا حينما التحقت بكمبردج فى أكتوبر عام 1890م»[1]. ولم يتوقف تأثير «مل» عند رسل فقط، بل امتد تأثيره ليشمل الأسرة متمثلة فى الأب والأم على حد تعبير رسل. حيث يقول عن والده «فما أن بلغ من عمره الحادية بعد العشرين حتى أحس فى نفسه كفرًا بالمسيحية، وأبى أن يذهب إلى الكنيسة يوم عيد الميلاد، وقد جعل من نفسه تلميذًا فصديقًا لـ «جون ستيوارت مل» الذى علمت منذ أعوام قليلة أنه كان لى أبًا فى العماد My God Father، وكان أبى وأمى قد تبعا «مل» فى آرائه، ولم يقتصرا فى ذلك على الآراء التى صادفت عند الناس قبولاً نسبياً بل جاوزاها إلى الآراء التى كانت عندئذ تصدم الناس فى شعورهم، كحق المرأة فى الانتخاب Women's Suffrage وضبط النسل Birth Control وما إلى ذلك»[2].

إن تأثير «مل» على رسل، جعل الثانى يقول عن الأول «أنه كان أباه الروحى»[3]، حيث قرأ رسل فى فترة مراهقته معظم مؤلفات «جون ستيوارت مل» وتبنى آراءه فيها، ماعدا الجانب التطبيقى والرياضى[4]. بينما امتد تأثير «مل» على رسل إلى فلسفة الأخلاق، مما جعل رسل يقول: «لقد كان يبدو لى بديهيًا فى ذلك الوقت أن الغاية من وراء كل عمل يجب أن تكون سعادة بنى الإنسان، ولكنى اكتشفت، لفرط دهشتى، أن هناك أناسًا لا يقرون هذا الرأى، وكان الاعتقاد فى سعادة بنى الإنسان، فيما عرفت بعد ذلك يقرن بمذهب المنفعة. وكان يعتبر مجرد نظرية من بين نظريات أخرى فى علم الأخلاق، ولذلك تمسكت بذلك المذهب بعد أن

(1) برتراند رسل: فلسفتى كيف تطورت، ترجمة: عبد الرشيد الصادق، مراجعة وتقديم: زكى نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1960م، ص38.

(2) Bertrand Russell: My Mental Development, in: the Philosophy of Bertrand Russell, edited by, p. A. Schilpp, The Library of Living Philosophers, Tudor Publishing company, New York, 1951, p.3.

وقد تم نشر هذا المقال أيضًا ضمن «الكتابات الرئيسية لبرتراند رسل» دون أن يزاد عليه أو ينقص منه شيئا، تحت إشراف كل من: «روبرت إ. إجنر»، «لاستر إ. دينون»، أما تصدير الكتاب فكان لـ «جون جـ. سلاتير» وبياناته كالتالى:

- Bertrand Russell: My Mental Development, in, The Basic Writing of Bertrand Russell, edited by, Robert E. Egner and Laster E. Denonn, with an Introduction by, John G. Slater, Routledge Classics, London and New York, 2009,p.9.

(3) زكريا إبراهيم: دراسات فى الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1968م، ص219.

(4) Nicholas Griffin: The Cambridge Companion to Bertrand Russell, Cambridge university press, New York, 2003, p.3.

اكتشفته، واندفعت بطيشى وحماقتى إلى جدتى لأمى كى أخبرها بذلك، فأغرقت فى السخرية منى، وأخذت منذ ذلك الحين تعرض علىّ عُقدًا أخلاقية وتطلب منى حلها طبقًا للمبادىء النفعية، ولاحظت أن رفضها للمذهب النفعى لم يكن يعتمد على أسس قوية، وأن معارضتها له لا تستند على أفكار ذات بال»[1].

ولقد أكد رسل على اهتمامه بالنفعية الأخلاقية عندما قال: «إنى أعتقد أن الأخلاق الفطرية تنبع دائمًا من فكرة بقاء النوع، ولكنى لا اعتقد أنه ينبغى للمجتمعات المتحضرة أن تسير وفق هذه القاعدة. أما قاعدتى فى الحياة، التى تهدينى فى سلوكى، والتى اعتبر أى انحراف عنها خطيئة، فهى أن أسلك بطريقة قد تجلب أكبر سعادة ممكنة، سواء فى الكم أو الكيف. لقد اعتبرت جدتى هذه القاعدة غير عملية إذ أنه لا يمكن أبدا معرفة الشيء الذى يأتى بأكبر سعادة، لهذا من الأفضل أن يسير الإنسان وفق ضميره»[2].

ولكن اعتراض رسل هنا على جعل الضمير مقياسًا للخبرة الأخلاقية، ويضرب على ذلك مثالاً فيقول: «والضمير، على أية حال، يعتمد غالبًا على التعليم، فالإيرلندى العادى مثلا لا يعتبر الكذب ذنبًا، وهذه حقيقة تكفى لإنكار قدسية الضمير. وبما أن الضمير على ما اعتقد، ما هو إلا نتاج مشترك للتطور والتعليم، فمن السخف إذن أن نتبعه، بدلاً من إتباع العقل. إن عقلى يهدينى ويجعلنى أوثر القيام بأعمال تجلب أكبر سعادة، وعبثاً حاولت أن أقتفى طريقًا غير هذا، ولم أكن أقصد سعادتى الذاتية بصفة خاصة بل سعادة الجميع دون تمييز بين نفسى، وأقربائى، وأصدقائى، أو حتى الغرباء عنى تمامًا»[3].

يشير «آير» فيلسوف الوضعية المنطقية فى إنجلترا، فى كتابه «الحرية والأخلاقية ومقالات أخرى» أن النظرية النفعية هوجمت من قبل «برادلى» F.H. Bradley فى دراساته الأخلاقية Ethical Studies وكذلك «جورج مور» فى أصول النظرية الأخلاقية Principia Ethica على الرغم من أن «مور» قد أخذ الموضوع بطريقة جدية حتى أفرد له ما يقرب من أربعون صفحة فى كتابه «الأخلاق»[4].

(1) برتراند رسل: سيرتى الذاتية، مصدر سابق، ص58.
(2) المصدر السابق: ص67.
(3) برتراند رسل: سيرتي الذاتية، مصدر سابق، ص67.
(4) A. J. Ayer: Freedom and Morality- and Other Essays, Op.cit, pp.35-36.

يلخص رسل وجهة نظره فى هذا الموضوع فينتهى إلى قوله: اعمل بحيث ينشأ عن عملك اتساق فى الرغبات أكثر مما ينشأ عنه تنافر فيها، هذه هى القاعدة الخلقية التى ينبغى مراعاتها فى كل حين وفى شتى الحالات: ينبغى مراعاتها عند الفرد الواحد بينه وبين نفسه لتصبح رغباته متآزرة لا متنافرة، وينبغى مراعاتها داخل حدود الأسرة، والمدينة والوطن، ثم بالنسبة إلى البشرية كلها ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا[1].

ولتحقيق هذه الغاية عند فيلسوفنا وسيلتان: «الأولى أن ننشئ من النظم الاجتماعية ما يعين على إحداث التناسق بين رغبات الأفراد، بحيث نحصر تنافرها فى أضيق نطاق ممكن، والثانية أن ننشئ الأفراد فى عملية التربية على نحو يوجه رغباتهم وجهة من شأنها ألا تتنافر رغبات الفرد الواحد مع رغبات الآخرين، ولن أقول شيئًا عن الوسيلة الأولى، لأن أمرها متصل بعلم السياسة وعلم الاقتصاد، وأما عن الوسيلة الثانية- وسيلة التربية- فأقول إن دور التكوين هو مرحلة الطفولة التى يجب أن تسودها الصحة والسعادة والحرية والتدريب المتصل على أن يوجه الفرد حبه للسيطرة نحو البيئة، فنعود الطفل أن يمارس غريزة السيطرة تجاه الأشياء لا تجاه غيره من الناس[2].

ولكن.. ما هى حقيقة المثل الأعلى فى فلسفة الأخلاق عند رسل؟؟

يرى رسل أن المثل الأعلى ليس مجرد رغبة شخصية، كرغبة الإنسان فى أسباب راحته أو الحصول على طعامه ومسكنه، فالشىء الذى يفرق بين المثل الأعلى والشىء العادى حين يرغب فيه الإنسان، أن المثل الأعلى غير متعلق بالمصلحة الشخصية، إنه شىء لا علاقة له قط بذات الشخص الذى يشعر بالرغبة فيه، ولذلك يكون من الممكن من الناحية النظرية أن يصبح المثل الأعلى موضوع رغبة من كل إنسان، وبهذا يمكننا أن نعرف المثل الأعلى بأنه شىء مرغوب فيه دون أن يكون الراغب فيه مركز الانتباه فى ذاته، أى فى أهوائه ومصالحه الشخصية، وبحيث يتمنى هذا الراغب فيه أن يكون مثله الأعلى مرغوبًا فيه من كل إنسان، فقد أرغب فى أن يجد كل إنسان ما يكفيه من الطعام، وأن يعطف كل إنسان على كل إنسان. وإذا رغبت فى شىء من هذا القبيل، رغبت كذلك فى أن يكون موضع رغبة من جميع الناس، وبهذه الطريقة يمكننى أن أقيم ما يبدو- فى ظاهره - بناءً أخلاقيًا عامًا غير شخصى، وإن كان فى الحقيقة يقوم على أسس

(1) برتراند رسل: الفلسفة بنظرة علمية، مصدر سابق، ص195.
(2) المصدر السابق: ص ص 195،196.

من رغباتى الشخصية، لأن الرغبة فى المثل الأعلى تظل رغبتى حتى ولو لم يكن الشىء المرغوب فيه على اتصال بشخصى، فمثلاً قد يتمنى إنسان أن يستوعب العلم كل إنسان، وقد يتمنى غيره أن يقدر الفن كل إنسان، فالذى يفرق بين رغبتيهما هو اختلاف شخصى محض[1].

وهكذا ربط برتراند رسل بين القيم العليا ودوافع الرغبات الشخصية عند الإنسان، وجعل التفرقة بينها وبين الرغبة الشخصية قائمة فى خلو المثل الأعلى من الميول الشخصية والمصالح الذاتية، وإن كان فى أصله رغبة شخصية وسّعَ صاحبُها إطارها حتى جعله شاملاً للبشرية، هذه هى عمومية القيم، ذاتية من حيث هى صادرة عن الذات، وموضوعية من حيث هى ملتقى الناس جميعًا[2].

من هنا كان فيلسوف الأخلاق يعلم حق العلم أن الظاهرة الخلقية ليست مجرد «ظاهرة فردية» لا تهم سوى صاحبها، كما أنه يفهم حق الفهم أنه ليس ثمة حد فاصل بين «السلوك الخاص» و«السلوك العام» ولكنه يحاول فى الوقت نفسه أن ينير السبيل أمام «حريتنا الفردية» حتى يكشف لنا عن الطابع الإنسانى، الذى لابد أن يتحلى به كل إنسان[3].

وينتهى رسل إلى «أنه من البديهى ما دامت الرغبات المتسقة هى هدفنا، فالحب أفضل من الكراهية، لأنه من اليسير على حبيبين أن يشبعا رغبتيهما معًا، وواضح كذلك أن تشجيع الرغبة فى المعرفة يصبح واجبًا علينا، لأن الزيادة من المعرفة لا تكون على حساب الآخرين، وأما الرغبة فى الامتلاك فهى على نقيض ذلك قلما تتحقق عند واحد إلا على حساب إحباطها عند آخر، وألخص مذهبى فى الأخلاق فى عبارة واحدة هى: «الحياة الخيرة هى حياة يوحى بها الحب وتهديها المعرفة»[4]. كما أن كمية السعادة التى تنتج عن الحب تكون أكثر من تلك التى تتولد عن الكراهية[5]. وهنا يتوافق رسل مع المبدأ البرجماتي القائل بتحقيق أكبر عدد من اللذات لأكبر عدد ممكن من الناس.

(1) توفيق الطويل: قضايا من رحاب الفلسفة والعلم، دار النهضة العربية، القاهرة، 1986م، ص ص40،41.
(2) المرجع السابق، ص41.
(3) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مرجع سابق، ص37.
(4) برتراند رسل: الفلسفة بنظرة علمية، مصدر سابق، ص196.
(5) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص66.

تعقيب عام

فى ثنايا الصفحات السابقة، قمت بعرضٍ عام لطبيعة القيمة الأخلاقية عند الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل، وقد تبلورت فيها فلسفة رسل من خلال النزعة المتبعة فى جُلّ فلسفته، ألا وهى النزعة الواقعية التى تحلت بها فلسفة رسل بوجه عام، وهذه النزعة جعلت فلسفة رسل الأخلاقية مصطبغة بالصبغة الاجتماعية، تلك الصبغة التى جعلت أفكار رسل العامة فى الأخلاق قريبة من فكر الإنسان العادى، فهى فلسفة للقارئ العام والمتخصص على السواء.

ولكن من العجيب أن ترى فيلسوفًا عظيم الشأن فى الفلسفة الغربية مثل برتراند رسل، يخفى إيمانه بالمذاهب الفلسفية التى يعتنقها، وذلك خوفاً من أسرته، المتمثلة بصفة خاصة فى جدته من أمه، حيث آمن رسل فى بداية حياته المبكرة بالنفعية الأخلاقية لدى أعظم فلاسفتها وهو «جون ستيوارت مل» ولكن كان يخفى ذلك الإيمان بهذا المذهب خوفاً من جدته، وقد ظهر الاتجاه النفعى فى هذا الفصل بصورة واضحة وبخاصة فى موضوع القيم الأخلاقية بين الفرد والمجتمع، ولذلك أسميت الفصل «النفعية الأخلاقية» وذلك للتأكيد على فكرة المنفعة العامة التى تبناها رسل فى بدء حياته.

من هنا يمكن القول أن الفترة الأول فى حياة برتراند رسل كانت تسمى بالنفعية الأخلاقية، وسوف نرى فى الفصول القادمة كيف يتحول رسل من اتجاه إلى اتجاه آخر، من هنا لابد أن نتذكر أن الطور الأول فى فكر رسل الأخلاقى كان هو النفعية الأخلاقية كما كانت عند فلاسفة النفعية أمثال «بنتام» و«مل».